

الحلقة الرابعة والعشرون

سفر الجامعة

برنامج أنوار كاشفة

أهلاً ومرحباً بك صديقي المستمع في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. بدأنا قبل عدة لقاءات بدراسة سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

تابع سليمان الحكيم في اللقاء الماضي تقديم مشورته العملية. فتكلم عن أهمية سمعة الإنسان أي الصيت الذي هو أفضل من الطيب. وتحدث عن يوم الممات الذي هو أفضل من يوم الولادة. وأن الذهاب إلى العزاء والحزن، أفضل من الذهاب إلى الوليمة والضحك، لأنه يكشف نهاية الإنسان، وتجعله يعتبر.

هل تقبل مستمعي النقد البناء الموجّه لك من إنسان حكيم؟ هناك أناس حكماء، لديهم خبرة في الحياة، قد نلتقي بهم في العائلة أو المجتمع، فهل ترانا نعتبر نصائحهم لنا ونأخذها على محمل الجد؟ أم أننا نصمّ أذاننا، ونسلك كما تريده أهوانا ونفوسنا؟ كتب سليمان الحكيم قائلاً: "سمع الانتهار من الحكيم خير للإنسان من غناء الجهّال. لأنه كصوت الشوك تحت القدر هكذا ضحك الجهال. هذا أيضاً باطل." (الجامعة ٧:٥ و٦)

قارن الحكيم هنا بين الاستماع إلى انتهار الحكيم وغناء الجهّال وضحكهم، أي مدحهم المعسول. وصور الحكيم غناء الجهال وضحكهم، كصوت الشوك الموجود تحت القدر، أي كالذي يعطي ضجيجاً بدون أي معنى أو لحن مميز. وينصحن الحكيم هنا أنه خير لنا أن نستمع لانتهار الحكيم أو توبيخه الصادق، من الاستماع لغناء الجهال وضحكهم وتملقهم لنا، الذي لن يزيدنا إلا بؤساً وتعاسة. فهل تراك مستمعي تنصت لنصائح الحكماء وحتى لانتهارهم وتوبيخاتهم لك؟ أم تتجرف وراء خداع الجهال وتملقهم لك، الذين ربّما قد يجعلونك تسر للحظات، لكنهم يسببون لك التعثر والآلام في المستقبل. حقاً، إننا جميعاً بحاجة إلى كلمة الحكمة الصادقة التي تقود مسيرتنا في هذه الحياة.

هل تعلم مستمعي أن للمال إغراء كبيراً حتى على الحكماء؟ فيشوّه أفكارهم، ويقلب قراراتهم، ويجعلهم يتصرفون كالناس الجهلاء الذين لا حكمة عندهم. كتب سليمان الحكيم قائلاً: "الظلم يجعل الحكيم أحمق. والرشوة تُفسد القلب." (الجامعة ٧:٧ تفسيرية) إن المقصود بالظلم هنا، هو ما يتعرّض له الحكيم من مظالم، فيعتدى على حقوقه، وتهان كرامته. ولا يجد عندها أمامه،

سوى أن يتخذ قرارات حمقاء وغبية، تجعله يتصرف كالجبال والحمقى. وكأن الحكيم هنا ينصح الحكماء أن لا ينجرفوا وراء الانفعال ورد الفعل السريع، بل يزنوا قراراتهم قبل أن يتخذوها.

وكشف سليمان الحكيم عن موضوع هام آخر يتعرض له الإنسان الحكيم وهو الرشوة، التي قد تفسده، وتجعله يعوج الحكم والقضاء، ويتصرف بطريقة بعيدة عن العدل والحق. أليس هذا ما نراه كثيراً مع الأسف في مجتمعاتنا العربية؟ فالفساد يعم هذه المجتمعات، وهناك صعوبة بالغة في وضع حد له. إن الفساد في المجتمع هو كالسوس الذي ينخر الخشب. وليس مفاجئاً أن تجد مسؤولين أو موظفين كبار، أو حتى قضاة، يقبلون الرشوة ويتورطون في الفساد، وصح بهم قول سليمان الحكيم أن الرشوة تفسد القلب. فحذار مستمعي من الوقوع في إغراء الرشوة الذي لا بد أن تفسد قلبك وحياتك.

ثم كشف لنا سليمان الحكيم عن أمر هام آخر قد يؤثر على الإنسان الحكيم ويفسده وهو: عدم الصبر والتأني. فكتب قائلاً: "تهاية أمر خير من بدايته. طول الروح - أي الصبر - خير من تكبر الروح." (الجامعة ٨:٧) لكن لماذا نهاية أمر خير من بدايته؟ وما علاقة هذا الموضوع بطول الروح أو الصبر؟ إن إنجاز ما بدأه يستلزم جهداً ومشورة حكيمة، وانضباطاً ذاتياً. وأي إنسان لديه رؤية يستطيع أن يبدأ مشروعاً كبيراً. ولكن رؤية بدون حكمة وصبر وتأن، كثيراً ما تؤدي إلى مشروعات وغايات غير مكتملة. لهذا علينا إذا أردنا أن نكون حكماء، أن نتحلى بالصبر، لأن الصبر هو من أعمدة الحكمة.

ويلفت سليمان الحكيم انتباه الحكيم إلى موضوع هام آخر قد يشوه حياته وقراراته ألا وهو الغضب. فكتب قائلاً: "لا تسرع بروحك إلى الغضب، لأن الغضب يستقر في حزن الجهال." (الجامعة ٩:٧) إذن إن الإسراع في الوقوع بالغضب، هو من صفات الجهال وليس الحكماء.

وكان سليمان الحكيم قد كتب في سفر الأمثال قائلاً: "السريع الغضب يعمل بالحمق.." (أمثال ١٤:١٧) وأيضاً: "البطيء الغضب خير من الجبار، ومالك روحه خير ممن يأخذ مدينة." (أمثال ١٦:٣٢) وهذا يؤكد أن الإسراع في الغضب هو من مزايا الجهال، وليس الحكماء. وعلى العكس عندما يضبط الإنسان نفسه، ويبطئ من غضبه، فهو يكون أفضل من الجبار المعتد بقوته. وليس هذا فحسب، بل إن مالك روحه، أي الذي يضبطها هو أفضل من الذي يحتل مدينة. أجل، إنها صفة أو ميزة هامة علينا أن نتحلى بها جميعاً، إذا أردنا أن نكون حكماء.

أما الرسول يعقوب من رسل المسيحية الأوائل فقد كتب إلى المؤمنين بالمسيح قائلاً: "إذا يا إخوتي الأحباء ليكن كل إنسان مسرعاً في الاستماع، مبطناً في التكلم، مبطناً في الغضب. لأن غضب الإنسان لا يصنع بر الله." (يعقوب ١: ٩ و ٢٠)

إن المؤمن بالمسيح عليه إذن أن يتحلّى بضبط النفس. لعلّ السؤال الآن: كيف بإمكاننا أن نتحلّى بهذه الصفة الهامة، صفة الإبطاء بالغضب، لكي نُعتبر من الحكماء وليس من الجهال؟ هل تعلم مستمعي أن الإسراع في الغضب وعدم ضبط النفس، هما من نتائج الخطيئة التي نستعبد لها؟ فالإسراع في الغضب كغيره من الخطايا هو من نتائج الخطيئة التي تتحكم بنا. لقد أتى المخلص المسيح من السماء لكي يحررنا من عبودية الخطية، وليعطينا القوة لكي نضبط نفوسنا ونسيطر على غرائزنا. فهل تراك تؤمن مستمعي بهذا المخلص الفريد، الذي وحده يستطيع أن يحررك من كل نتائج الخطيئة، ويبدّل من طباعك القاسية، ويجعلك إنساناً حكيماً؟